ثقافة

"محمد شامل رائد الفن الشعبي" لمحمد كريّم
تاريخ من الفنّ والإبداع ودرب محفوفة بالشوك

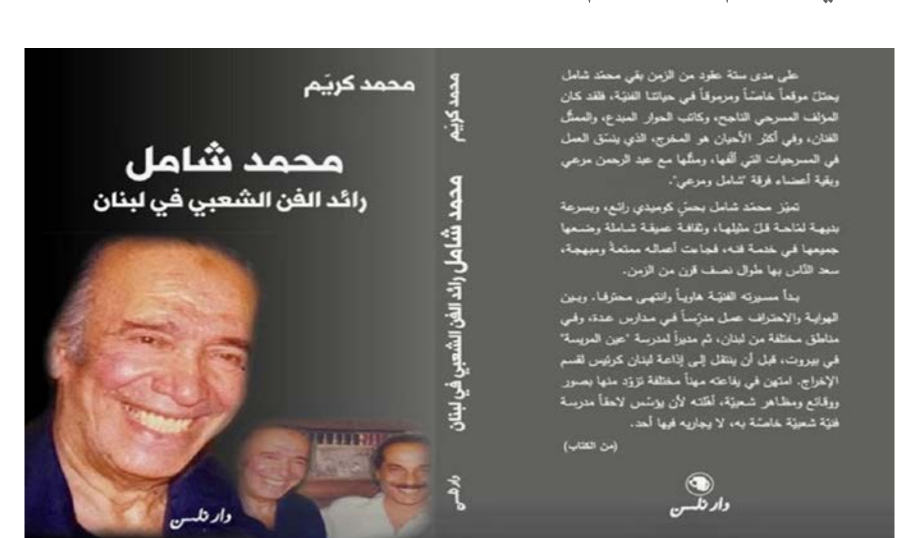
عندما يخط قلم لامع من اهل الحقبة الذهبية للفنون في لبنان مسيرة فنان مبدع كانت له معه ذكريات، تتحول كل صفحة من الكتاب الى مرجع قيم، جذاب وثري بالخبرات والقصص. وهذا ما يعكسه كتاب "محمد شامل رائد الفن الشعبي في لبنان" عن دار نلسن، للمخرج الاذاعي والمسرحي المخضرم محمد كريم

منذ اكثر من اربعين عاما، تعرّف محمد كريم بمحمد شامل وترافق معه في رحلة فنية، اخرج له خلالها نصف رواياته المسرحية، ومعظم اعماله الاذاعية مما اذيع من اذاعة لبنان، او من الاذاعات العربية: الاف الحلقات كتبها في مختلف انواع المعرفة، وشتى الوان الفنون الاذاعية، من برامج فكاهية الى برامج اجتماعية وادبية وتاريخية وتراثية وثقافية. جمعتهما صداقة كانت تزداد متانة يوما بعد يوم على مدى العقود الاربعة، والتي مكنته من التعرف والتوغل في علمه الفني والفكري والثقافي.

لذلك يقول كريم في كتابه: "ليس اشق على المرء من ان يتحدث عن صديق من دون ان يكون موضع اتهام. فانت ان اشدت فقد يقال بانك قد بالغت، وان اوجزت فقد يقال بانك قصرت، وفي الحالين تكون قد جانبت الصواب. فكيف العمل يا رعاك الله وانت تتحدث عن صديق متعدد المواهب والكفاءات، غزير الانجاز والعطاء".

على مدى ستة عقود من الزمن، بقي محمد شامل (1909 - 1999) يحتل موقعا خاصا ومرموقا في حياتنا الفنية، فلقد كان المؤلف المسرحي الناجح، وكاتب الحوار المبدع، والممثل الفنان، وفي اكثر الاحيان هو المخرج الذي ينسق العمل في المسرحيات التي الفها ومثلها مع عبدالرحمن مرعي وبقية اعضاء فرقة شامل ومرعي.

ابدع محمد شامل رائد الادب الشعبي في لبنان، فقبله لم يكن ثمة فن درامي شعبي، اذ كل ما كان يقدم بضعة مشاهد فكاهية



غلاف الكتاب.



> **نداء الى وزارة الثقافة للعمل على جمع تراث محمد شامل**

هي بقايا لمواقف مسرحية قدمها كشكش بك (امين عطالله) في النصف الاول من القرن الفائت.

كان محمد شامل غزير الانتاج. كتب اكثر من ثلاثين الف نص بين الاذاعة والتلفزيون والمسرح والسينما، منها "الدنيا هيك"، "يا صبر ايوب"، "عالماشي"، "خلي بالك من شوشو"، "يوميات شوشو بك" وغيرها.

اما محمد كريم فانه من مواهب اذاعة الشرق الادنى، ومن اعمدة اذاعة لبنان منذ انطلقت اواخر الخمسينات. عاصر الكبار واخرج اعمالهم عبر اثير اذاعة الشرق الادنى في اواخر اربعينات القرن الماضي، وفي اذاعة لبنان ومن بعدها في اذاعة صوت الوطن.

في موازاة ذلك، اتجه الى الاخراج المسرحي ورافق رائد المسرح اللبناني نزار ميقاتي، واخرج مسرحيات شامل ومرعي وحسن علاء الدين (شوشو) بين استوديوهات الاذاعة في عصرها الذهبي، وخشبة المسرح الوطني في عز عروضه اليومية مع شوشو.

في الكتاب يصف كريم شامل بالعبقري والمثقف الموسوعي، في الادب والشعر والفن. هو الاتي من المعهد الشرقي في جامعة القديس يوسف في بيروت مطلع اربعينات القرن الماضي، حاملا اجازته الجامعية في آداب اللغة العربية وقواعدها في سن الاربعين، وبالماجستير في اطروحة عن ادب الخوارج. وبخلفية توليه ادارة مدرسة، انطبع بطابع الحكمة والرصانة، وبخلطة سحرية بالكوميديا وخفة الظل، ليبتكر لجمهوره اللبناني والعربي مجموعة كبيرة من الاعمال المسرحية والاذاعية والتلفزيونية.

تميز محمد شامل بحس كوميدي رائع، وبسرعة بديهة لماحة قل مثيلها، وثقافة عميقة شاملة وضعها جميعها في خدمة فنه، فجاءت اعماله ممتعة ومبهجة، اسعد الناس بها طوال نصف قرن.

تحدث كريم في كتابه عن حياة وشخصية شامل ومسيرته الفنية، لافتا الى ان محمد شامل كتب ومثل في شتى الوان الفن الدرامي: التاريخية والادبية والاجتماعية، واجاد فيها كلها، فقد اتيح له من العلم والخبرة والثقافة ما اهله لكتابة هذه الالوان بصدق ويسر وعمق. لقد وظف هذه المواهب والمكاسب كلها لانتاج اعمال فنية ذات مستوى لائق، محققا فنا راقيا. حتى عندما عالج القضايا الاجتماعية الشعبية عرف كيف يحافظ على مستواه الادبي والفني، فلم يسف يوما ولم يلجأ قط في اعماله كلها التي كتبها الى نكتة رخيصة او موقف مفتعل او حوار مبتذل من اجل الاضحاك، بل بقي محافظا على المستوى الذي يليق بفنه ومكانته حتى نهاية عطائه.

على صعيد التمثيل، اكد كريم ان شامل "لعب في جميع الوسائط الاعلامية: المسموعة والمرئية ادوارا كوميدية وجادة تراثية وحديثة، وكان فيها ممثلا بالمعنى العلمي للكلمة، اي انه لم يكن ممثلا نمطيا يعتمد شخصية واحدة ذات معالم ثابتة، بل جسد شخصيات الندمان والشخصيات الطريفة، جحا واشعب وابوالغصن، اضافة الى سائر الشخصيات الشعبية البيروتية، وفي طليعتها المختار والحكواتي. وقد ادى بعض هذه الشخصيات باللغة العربية الفصحى، التي كان ضليعا فيها، متمكنا من تفاصيلها، وادى البعض الاخر من الادوار بالعامية المحكية البيروتية التي كان يملك ناصيتها، وفي كلتا الحالتين ادى ادواره ◄

المقال

الكوميديا وزمن "التوت"

من السهل ان تكتب قصة لفيلم مأساوي، وما اكثر المآسي في العالم، ولكن ليس سهلا ان تبتدع نكتة جديدة. من السهل ان تمثل دور المفجوع، ولكن ليس سهلا ان تأتي بحركات تفجر ضحكا.

حجزت الكوميديا مكانا كبيرا لها في لبنان. رافقت اللبنانيين في ايام الحروب كما في ايام السلم، وكان لها حضور ذهبي على كل المنابر الاعلامية. فمن لم يسمع مثلا بـ"ابو سليم" و"دويك يا دويك" وغيرهما من المسلسلات التي ادخلت الفرح الى كل منزل؟ ومَن لم يضحك مع "المعلمة والاستاذ"، او يكرر نهفات شوشو، ونكات "فيلم اميركي طويل"؟ فيما ارسى محمد شامل الميزان الدقيق بين ما هو كوميدي هادف، وبين ما هو تطفل وابتزال وتهريج.

اليوم تغيرت اوجه الكوميديا كثيرا، واستبدلت مسلسلات الزمن الجميل الفكاهية بـ"ابوعزيز" و"مجدي ووجدي" و"ماريوكا" وغيرها من الشخصيات، فيما تربعت "توت" الشهيرة على زمن الكوميديا الحديث.

صحيح انه لا يمكننا التعميم ولا يزال هناك قلة تكتب الكوميديا بشكل راق، خال من الابتذال والتهريج واثارة الغرائز الجنسية، او اللعب على الوتر السياسي. الا ان معظم النصوص الكوميدية اليوم مبتذلة بينما كانت قديما مبنية على حكاية وحبكة او قصة معينة وعلى البعد النفسي للشخصيات، عكس ما هي عليه اليوم حيث تأتي مبنية على نقد اساسه التجريح والسخرية الزائدة، لذا فقدت في عصرنا رونق الكوميديا واهدافها ورسائلها الاجتماعية والانسانية والثقافية.

يفسر البعض ان اشتداد المنافسة اليوم على المحتوى السخيف يعود الى ان الناس بفعل العوامل المحيطة، كالحروب والفساد والفقر، اصبحوا في حاجة الى فحوى ينسيهم مشاكلهم، حتى لو كانت البرامج الكوميدية الظاهر سوقية المضمون، فيما توسع حضور الكوميديا نحو المنصات الرقمية مواكبة للتطور والتكنولوجيا، وقد اصبحت على شكل نكات عبر الواتساب او "ستاند اب كوميدي" في المقاهي او مقاطع فيديو على تيك توك وانستغرام ويوتيوب، او حتى برامج تلفزيونية تراعي التحولات الرقمية وتفضيلات الجمهور.

كسرت وسائل التواصل الاجتماعي قيود الاخلاق والتهذيب بحيث اصبحت الامور كلها مباحة ومتاحة عبر منابرها، لذا ليس من الغريب الاتجاه الى الابتذال في الكوميديا من اجل التسويق.

فهل يعود السبب الرئيسي الى قلة الثقافة وغياب الموهبة، فضلا عن سهولة الوصول الى المنابر كلها؟

يقول النقاد ان هناك اعمالا تستحق التوقف عندها حتى لو لم تكن بالعمق الثقافي المطلوب، غير ان غالبية اللبنانيين لم تعد تهتم كثيرا بالثقافة بقدر ما باتت تتطلع الى الضحك على اي شيء ينسيها همومها اليومية.

في الكوميديا ثمة خط احمر رفيع ودقيق، يشكل الحد الفاصل بين ما هو فن وابداع، وبين ما هو هزل هابط ورخيص بين الكوميديا والتهريج، وعلى الكاتب الاصيل ان يقدر المسافة التي تفصل بين حدي هذا الخط فلا يتخطاهما. الكوميديا لا تكون بتحريك الغرائز، بل يجب ان تكون مرتكزة على موقف وقضية.

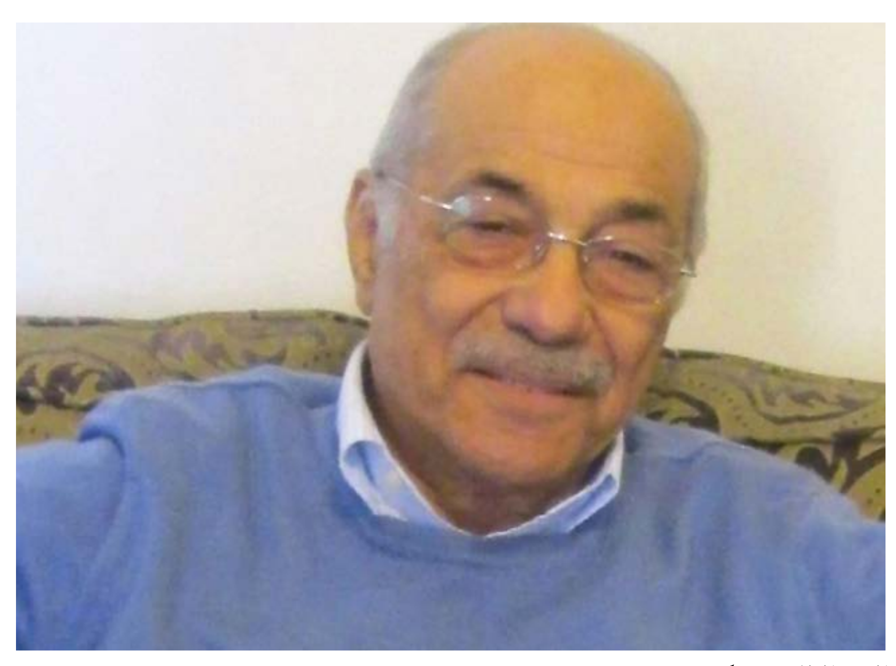
ميرنا الشدياق

◄ بالسلاسة نفسها، وبالطواعية ذاتها...".
وفي ما كتبه محمد شامل من برامج تراثية كان "صانعا ماهرا يملك الكيمياء العجيبة التي مكنته من تحويل بعض كتب التراث الخالية من اي بذرة للدراما، الى اعمال تدب فيها الحياة، وتؤدي رسالة من اشرف الرسالات، هي رسالة احياء التراث الادبي وتقديمه باسلوب مشوق الى العامة. يكفي ان نشير في هذا السياق الى عناوين بعض الكتب التراثية التي حولها الى برامج اذاعية وتلفزيونية شائقة: كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني، وكتاب الحيوان للجاحظ، وكتاب المستطرف في كل فن مستظرف للامام الابشيهي، وغيرها.

كريم يشير في الكتاب الى ما كان يرويه شامل عن مرحلة الاربعينات حين اسس مع عبدالرحمن مرعي اظرف ثنائي كوميدي في لبنان، وكانت عروضهما المسرحية في الوست هول في الجامعة الاميركية في بيروت، حيث يفخر شامل كيف ان الرئيس بشارة الخوري الذي وصلته اصداء نجاح هذه المسرحيات استدعاه وعبدالرحمن مرعي وبقية افراد الفرقة الى القصر الجمهوري الصيفي في بيت الدين لتقديم احدى مسرحياته، اذ ان البروتوكول يحول دون حضور رئيس الجمهورية شخصيا الى قاعة العرض.

ولعل من اجمل ما كتب من اعمال للاذاعة برنامج "فانوس جحا" الذي قدم اواسط الستينات من القرن الماضي من اذاعة لبنان. في هذا البرنامج كما في غيره من البرامج الاذاعية، دخل محمد شامل متحديا في اشكالية تقديم الكوميديا باللغة الفصحى، وقد استطاع ان يثبت في هذا البرنامج كما في غيره من البرامج مقدرة الفصحى على التعبير الكوميدي دون ان تنعت بالتقصير او الثقل.

واورد كريم في الكتاب بعض النصوص والحوارات التي كانت تجري في الحلقات. كما قدم في الكتاب مسرحية مصيدة العرسان وبعض الحوارات من بعض



المخرج المؤلف محمد كريم.



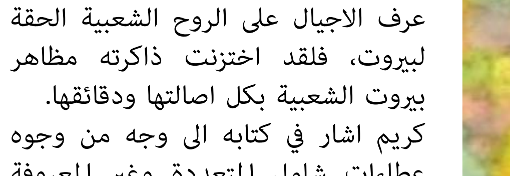
ملك الكيمياء العجيبة التي مكنته من تحويل كتب تراث الى اعمال تدب فيها الحياة



الاعمال التي قدمها محمد شامل.

يروي كريم في كتابه ان درب شامل لم تكن مفروشة بالورود بل على العكس كانت محفوفة بالشوك من كل جانب، ففي استعادة ذكريات طفولته البائسة في دمشق، التي انتقلت اليها العائلة هربا من المجاعة ايام سفر برلك يقول: "يولد الاولاد السعداء وفي افواههم ملاعق من ذهب، اما الاشقياء، وانا واحد منهم، فيولدون وفي افواههم ملاعق من خشب. ولدتني امي في بيروت عام 1909 في محلة كانت تدعى بوابة يعقوب ثم ماتت وانا ابن ستة اشهر، فكانت المعادلة ان امرأة استراحت وطفلا شقي". لم يمض وقت طويل حتى تزوج الاب، فكفله جده يوسف حمد، وتربى الطفل محمد شامل في كنف جديه. في حجر جدته بدأت تتجمع الخيوط الاولى لنسيج فنه الشعبي الذي سيولد بعد حين حيث سمع حكايا الجن والغول وسير الظاهر بيبرس والزير سالم وعنترة بن شداد وقصص الف ليلة وليلة: الشاطر حسن ومغامرات السندباد واسطورة طائر الرخ وحكاية بنت السلطان وحكاية قمر الزمان والست بدور وغيرها. كما سمع الطفل من جدته عن بطولات قبضايات بيروت، وفي طليعتهم خالاه: رسلان ومحمد، كيف "كانا مع اندادهما يتحدون العسكر العثماني ويكيدون له، وكيف كانوا يجيرون الملهوف ويساعدون الغريب وينصرون المظلوم".

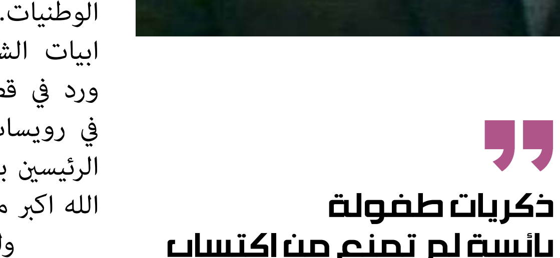
يقول محمد كريم "تعلق الطفل بجدته التي عوضته بحدبها عن حنان الام. وتعلقت الجدة بحفيدها الذي سلت به فقد الابنة الصبية فاطمة التي قضت وهي في ريعان شبابها، مخلفة طفلها الوحيد محمد شامل. كما خفف الحفيد من لوعة الجدة التي ثكلت ابنها الذي قتله الضابط العثماني، وكانت المدة الفاصلة بين مقتله وبين اعدام ابن عمه شنقا، الشهيد عمر حمد، على يد جمال باشا اكثر من ستة اشهر".



محمد شامل.

في استعادة ذكريات طفولة شامل البائسة، يقول: "من المآسي التي مرت بي ايام طفولتي في دمشق، هي ان ابي لم يرسلني الى الكتاب الا مرة واحدة، مكثت فيه ما يقارب الشهر، ثم ما لبث ان ارسلني الى لحام عملت عنده اياما ثم خرجت حين كادت سبابتي اليمنى ان تقطع تحت جبروت سكينه. ثم عملت لدى رجل عند مدخل الحي يبيع الشمندر المسلوق، فكنت اغسل حبات شمندره في بركة ماء وانا حافي القدمين لا يستر جسمي غير لباس رقيق، وبرد الشتاء في دمشق موصوف، ففتك بي مرض الربو، ولو لم تتداركني عناية الله لكنت قضيت من القر (اي كل ما هو شديد البرودة) او الاختناق".

في الرابعة عشرة من عمره، تعرف محمد شامل الى المدرسة لاول مرة في حياته، لكنها كانت معرفة خارجية. كانت خالته – زوجة ابيه – تريد ادخال ابنها الصغير (شفيق حسن) الى المدرسة، ولكنها كانت



ذكريات طفولة بائسة لم تمنع من اكتساب المهارات

تخاف عليه ان يذهب اليها وحيدا، فانتدب الاب ابنه شامل ليرافق اخاه غير الشقيق ويرعاه.

كانت الايام تمر ومحمد شامل ينتظر في الخارج، يستمع لما يقوله المعلم خلف شباك صف "المدرسة السورية" التي كان يديرها انذاك صاحبها الشيخ نعمان حنبل في محلة الخندق الغميق. لولا هذا يقول محمد شامل: "لما تعلمت الالف باء".

يروي كريم كيف تفتحت عينا محمد شامل على الاجواء الشعبية في بيروت التي كانت تتجلى باجمل مظاهرها في الاعياد والافراح والمناسبات.

كان في ادبه الشعبي جسر التواصل، عرف الاجيال على الروح الشعبية الحقة لبيروت، فلقد اختزنت ذاكرته مظاهر بيروت الشعبية بكل اصالتها ودقائقها.

كريم اشار في كتابه الى وجه من وجوه عطاءات شامل المتعددة وغير المعروفة من الكثيرين، هو الوجه اللغوي، فلقد كان مالكا ناصية اللغة، ضليعا فيها. ويقول: "لكم لجأنا اليه فايقظناه من رقاده ليصلح لنا بيتا من الشعر، حتى يستقيم وزنه، او نسأله في ضبط مفردة من المفردات حتى لا نلحن في لفظها، او في تشكيل كلمة اشكل علينا اعرابها، وكان يجيب كل سائل برحابة صدر، وطيب خاطر وعلم وافر...".

اما في الشعر فقد كان شاعرا مطبوعا اصيلا نظم في شتى فنون الشعر، وبخاصة الوطنيات. يذكر كريم في كتابه بعض ابيات الشعر التي كتبها شامل منها ما ورد في قصيدة القاها في مخيم الكشاف في رويسات صوفر عام 1943 في حضور الرئيسين بشارة الخوري ورياض الصلح:

الله اكبر ما للجور ينهزم
وللطواغيت قد ساخت بها القدم
نصر من الله يؤتيه قدر
فيرغم الخصم والاحداث ترتطم
عشرون عاما شربنا الكأس مترعة
رق الحديد وما لانت لهم شيم

كريم اكد في ختام كتابه ان الوطن في رحيل شامل "افتقد المربي والكاتب والاديب والشاعر واللغوي والفنان ورائدا من رواد الحركة المسرحية في لبنان، وافتقد فيه الوطن قبل هذا كله رائدا للادب الشعبي صاغ وبكل مهارة من موروثنا ومن مناحي الحياة الشعبية في بلدنا، ادبا راقيا وفنا ساميا".

اطلق كريم في ختام كتابه نداء الى وزارة الثقافة للعمل على جمع تراث محمد شامل، المرئي منه والمسموع والمكتوب، "فاننا اليوم احوج من اي وقت مضى الى جمع تراثنا كل تراثنا، حفاظا على الشخصية والهوية والكرامة...".

م. ش